

إعادة خلط الأوراق السكانية في الشرق الأوسط: المستقبل الديموغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل*

يوسف كبراج**

في الوقت الذي تبدو فيه عملية السلام الفلسطينية – الإسرائيلية متعثرة، تتخذ المسألة السكانية في إسرائيل وفلسطين بُعداً خاصاً طالما برز إلى السطح في المفاصل التاريخية الرئيسية، من بداية الانتداب الإنكليزي⁽¹⁾ إلى قيام دولة إسرائيل سنة 1948،⁽²⁾ ومن المفاوضات التمهيدية لاتفاق كامب ديفيد سنة 1978⁽³⁾ إلى انطلاق الانتفاضة سنة 1987.⁽⁴⁾ لكن المسألة فقدت من حدتها نتيجة اتفاقات أوسلو – واشنطن (1993)، إذ سرعان ما ساد اعتقاد أن فلسطينيي الأراضي المحتلة، أو فلسطينيي الأراضي التي ضمتها إسرائيل سنة 1967 (الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة)، سيصبحون قريباً مواطنين في عهدة السلطة الفلسطينية ولن يعودوا خاضعين، بحكم الأمر الواقع، للسيادة الإسرائيلية. والنتيجة الطبيعية لذلك أن الدولة اليهودية التي لن تستعيد تجانسها القومي، الذي لم يكن كاملاً قط في كل حال، ستحتفظ على أراضيها بالفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية⁽⁵⁾ فقط، الذين يبلغ عددهم 945 ألف نسمة سنة 1998، أي ما نسبته 16,5% من مجموع عدد سكان إسرائيل.

ستقدم هذه الدراسة، بداية، المعطيات الفلسطينية الجديدة ومن ثم التطورات السكانية المحتملة في الحيز الإسرائيلي – الفلسطيني وداخل إسرائيل، بحسب مكوناتهما السكانية، أي اليهود في مقابل الفلسطينيين، واليهود بحسب أصولهم الجغرافية. وعلى الرغم من عدم وجود منطلق آلي، على هذا الصعيد، فإننا نقترح بعض الاستنتاجات السياسية انطلاقاً من التطورات السكانية.

* قدمت هذه الدراسة في ندوة "الحركة الصهيونية وإسرائيل"، التي عقدتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، في لارنكا، قبرص، في الفترة 11 - 13/12/1998.
** مدير أبحاث في ميدان الديموغرافيا في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية في باريس.

سنة 1997: نصف مليون فلسطيني أكثر من المتوقع

تسمح المعطيات الإسرائيلية بقياس التحديات المطروحة على إسرائيل داخل حدود سنة 1948. وهذه المعطيات أقل تأكيداً بالنسبة إلى الأراضي المحتلة، الخاضعة للإدارة الإسرائيلية أو التابعة للحكم الذاتي. من هنا يكتسب الإحصاء الفلسطيني لسنة 1997 أهمية كبرى، وهو الثاني بعد إحصاء سنة 1967 الذي تلا احتلال الأراضي (التي كانت أردنية فيما يتعلق بالضفة الغربية والقدس الشرقية، ومصرية فيما يتعلق بقطاع غزة) نتيجة الحرب الإسرائيلية - العربية في حزيران/يونيو 1967. لقد تم تنفيذ الإحصاء السكاني الأخير خلال 24 ساعة (بين التاسع والعاشر من كانون الأول/ديسمبر 1997). وبعد أن منعت السلطات الإسرائيلية تنفيذ إحصاء السلطة الفلسطينية في القدس الشرقية، تم تقدير عدد الفلسطينيين المقيمين بالمدينة استناداً إلى الإحصاء السابق (1967)، وإلى احتمالات النمو السكاني السابق.

ويبلغ عدد السكان الفلسطينيين، قبل تصحيح التعداد ومع احتساب التقديرات بالنسبة إلى القدس الشرقية، 2,807,000 نسمة موزعين كما يلي: 56,9% في الضفة الغربية؛ 35,6% في غزة؛ 7,5% في القدس الشرقية. ويفوق عدد سكان المدن (57,5%) عدد سكان الريف (27,8%) وعدد سكان المخيمات (14,7%) الذين يتركز ثلاثة أرباعهم في قطاع غزة (انظر الجدول رقم 1).

الجدول رقم ١
عدد سكان فلسطين
في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧

المخيمات	الريف	المدن	المجموع	
١٠٣,٠٢٢	٧٢٨,٦٠١	٧٦٤,٨١٩	١,٥٩٦,٤٤٢	الضفة الغربية
-	-	٢١٠,٢٠٩	٢١٠,٢٠٩	القدس الشرقية*
٣١٠,٧١٩	٥٣,٠٤٢	٦٣٦,٤١٤	١,٠٠٠,١٧٥	غزة
٤١٣,٧٤١	٧٨١,٦٤٣	١,٦١١,٤٤٢	٢,٨٠٦,٨٢٦	المجموع

* تقديرات.

المصدر: Palestinian National Authority, *Population, Housing and Establishment Census 1997* (Ramallah, 1998).

وتصبح المقارنة بالتقديرات الإسرائيلية السابقة أكثر إثارة للاهتمام. فالعمود الثاني من الجدول رقم 2 يورد الأعداد غير المصححة، ويورد العمود الثالث الأعداد المعدلة (باستثناء القدس الشرقية) بعد اعتماد نسبة التصحيح 2,4% عقب الاستقصاء

اللاحق. أما معطيات العمود الرابع فهي إسقاطات مستقاة من الإحصاءات الإسرائيلية الصادرة سنة 1996 وسنة 1997 بالنسبة إلى سكان المناطق المحتلة أو التي ضُمت إلى إسرائيل، من سنة 1991 إلى سنة 1994 (الضفة الغربية)، وإلى سنة 1993 (غزة)، ومن سنة 1994 إلى سنة 1996 بالنسبة إلى السكان غير اليهود في القدس الشرقية. وإذا أهملنا نسبة التصحيح (2,4%) التي تقلل الفارق الناجم عن التحديدات المبدئية (الفلسطينية) والتحديدات الواقعية (الإسرائيلية)، فإننا نجد فارقاً أدنى يبلغ نصف مليون نسمة، أو 484,000 نسمة تحديداً، أي ما نسبته 21% من الفلسطينيين أقل في الإحصاءات الإسرائيلية. والفارق الكبير مسجل في الضفة الغربية حيث يبلغ 28,5% في مقابل 12% في كل من القدس الشرقية وقطاع غزة.

الجدول رقم ٢
مقارنة أرقام إحصاء ١٩٩٧
بالتقديرات الإسرائيلية السابقة

إحصاء ١٩٩٧					
نسبة تدني التقدير		التقديرات الإسرائيلية	الأرقام المعدلة	الأرقام الخام	
العدد	%				
٣٥٤,٠٤٢ -	٢٨,٥ -	١,٢٤٢,٤٠٠	١,٦٣٤,٧٥٧	١,٥٩٦,٤٤٢	الضفة الغربية
٢٢,٦٠٩ -	١٢,١ -	١٨٧,٦٠٠	٢١٠,٢٠٩	٢١٠,٢٠٩	القدس الشرقية
١٠٧,٦٧٥ -	١٢,١ -	٨٩٢,٥٠٠	١,٠٢٤,١٧٩	١,٠٠٠,١٧٥	غزة
٤٨٤,٣٢٦ -	٢٠,٩ -	٢,٣٢٢,٥٠٠	٢,٨٦٩,١٤٥	٢,٨٠٦,٨٢٦	المجموع

المصدر: Palestinian National Authority, *op.cit.*

التقديرات حتى كانون الأول/ديسمبر مأخوذة من:

Central Bureau of Israel, *Statistical Abstract 1996 and 1997*, Jerusalem.

وفي 15 أيار/مايو 1998، في الوقت الذي كانت إسرائيل تحتفل بذكرى تأسيسها الخمسين، كان عدد السكان الفلسطينيين، الذين يرتبط مصيرهم مباشرة بإسرائيل من دون أن يحملوا جنسيتها، نحو ثلاثة ملايين نسمة (2,920,000 نسمة).⁽⁶⁾ فبين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن، ضمن حدود فلسطين في زمن الانتداب أو حدود "أرض إسرائيل" (بحسب تعبير دعاة "إسرائيل الكبرى")، يعيش اليهود والفلسطينيون في حالة من التداخل على أرض صغيرة تبلغ مساحتها 24 ألف كلم². وفي إسرائيل، سواء في الجليل أو في النقب، كما في الأراضي الفلسطينية والمستعمرات اليهودية في

الضفة الغربية (150,000 مستوطن في الضفة الغربية، و170,000 مستوطن في القدس الشرقية، و6000 مستوطن في قطاع غزة) هنالك ما مجموعه 3,865,000 فلسطيني (في المناطق المحتلة والتابعة للحكم الذاتي والعرب الإسرائيليون) يعيشون ملتصقين بـ 4,760,000 يهودي، أي ما نسبته 45٪ و55٪ على التوالي.⁽⁷⁾ وهذه الأرقام ليست بعيدة عن التقديرات التي قدمها رئيس الحكومة السابق، شمعون بيرس: "4 ملايين عربي و4,7 ملايين يهودي"،⁽⁸⁾ محاولاً إعطاء هذه الأرقام الأهمية الجيوسياسية الواجب أخذها في الاعتبار، وخصوصاً أن هذا التوازن الهش قابل للتغيير بصورة ملموسة.

سيناريوهات للمستقبل

كيف ينظر شمعون بيرس، صاحب فكرة "شرق أوسط جديد" وصانع اتفاق أوسلو، إلى المستقبل الديموغرافي؟ "بعد عشرين عاماً سيتضاعف عدد سكان هذه المنطقة (فلسطين وإسرائيل) وسيصل إلى 20 مليون نسمة، سيكون نصفهم من العرب، على الأقل، نصفهم الآخر من اليهود."⁽⁹⁾ وينسب بيرس إلى الديموغرافيا نتائج سياسية مهمة: "فمن أجل أن تبقى إسرائيل بلداً يهودياً على الصعيد السكاني والخلقي، هي بحاجة إلى وجود دولة فلسطينية."

من الضروري إذاً توخي الدقة. لكن الإحصاءات الإسرائيلية التي تكثر من الأرقام عن الماضي والحاضر تحتفظ بصمت غريب تجاه المستقبل. ومع مرور الوقت، ازداد عدم الاهتمام باستكشاف احتمالات الغد.⁽¹⁰⁾

ومن أجل تدارك هذا النقص والتمكن من رؤية المستقبل بوضوح، سنقوم بتوسيع مرحلة التوقعات بالنسبة إلى إسرائيل من خلال تبني فرضيات الإسقاطات الإسرائيلية نفسها. أمّا بالنسبة إلى فلسطين فعلياً، في المقابل، صوغ توقعات كاملة كونها لم تُدرس بصورة جدية من قبل.⁽¹¹⁾

الجدول رقم 3

سيناريوهات الخصوبة (معدل عدد الأولاد للمرأة الواحدة)
في مجمل الحيز الإسرائيلي - الفلسطيني، 1995 - 2025

1995	2000	2005	2010	2015	2020	2025
سيناريو 1: تراجع الخصوبة						
إسرائيل	2,82	2,70	2,59	2,49	2,38	2,15
يهود	2,56	2,48	2,41	2,34	2,27	2,10
فلسطينيون	4,15	3,77	3,43	3,12	2,83	2,34
فلسطين	5,96	5,29	4,7	4,17	3,71	2,92

سيناريو ٢: ثبات الخصوبة في إسرائيل وتراجع بطيء في فلسطين							
إسرائيل	٢,٨٢	٢,٨٣	٢,٨٥	٢,٨٦	٢,٨٧	٢,٨٨	٢,٩٠
يهود	٢,٥٦	٢,٥٦	٢,٥٦	٢,٥٦	٢,٥٦	٢,٥٦	٢,٥٦
فلسطينيون	٤,١٥	٤,١٥	٤,١٥	٤,١٥	٤,١٥	٤,١٥	٤,١٥
فلسطين	٥,٩٦	٥,٦١	٥,٢٨	٤,٩٧	٤,٦٧	٤,٤٠	٤,١٤

المصدر: الحسابات مأخوذة من: Palestinian National Authority, *op.cit.*

وانظر أيضاً:

Palestinian Central Bureau of Statistics, *The Demographic Survey in the West Bank and the Gaza Strip* (Ramallah, 1996); *The Demographic Survey in the West Bank and the Gaza Strip, District Report Series, Jerusalem District* (Ramallah, 1996); Youssef Courbage, *Scenari demografici mediterranei-La fine dell' esplosione* (Torino, 1998); Central Bureau of Statistics, "Projections of Population in Israel up to 2003, based on the Population in 1993," *Monthly Bulletin of Statistics*, Jerusalem, Supplement No. 1, January 1995.

كم طفلاً سيولد لليهود ولل فلسطينيين في المستقبل؟

قامت إسرائيل بفضل الهجرة، وكادت فلسطين تمحى من الوجود بسبب النزوح. بيد أن الهجرة فقدت الدور الاستراتيجي الذي قامت به في الماضي. أمّا اليوم وغداً، فإن المستقبل الديموغرافي لليهود ولل فلسطينيين سيتقرر داخل العائلات واستعدادها للإنجاب، إمّا الإنجاب المبكر، وإمّا الإنجاب المتأخر. لذا اقترحنا احتمالين مختلفين قائمين، أساساً، على توقعات الخصوبة⁽¹²⁾ (الجدول رقم 3).

وفي إسرائيل تتأكد مقاومة تراجع الخصوبة لدى الفئتين. فوصل معدلها، لدى اليهود، إلى 2,80 طفل في مطلع الثمانينات وهو معدل مرتفع، بصورة لافتة، بالنسبة إلى شعب يعيش وفق النمط الغربي ومصنف رسمياً بين الدول المتطورة.⁽¹³⁾ وفي سنة 1996، كان مستوى الخصوبة اليهودية للمرأة الواحدة 2,58 طفل (أي أفضل من تركيا وتونس وهما بلدان مسلمان)، بتراجع نصف نقطة في المئة سنوياً. ويرجع هذا الثبات إلى التنوع السكاني اليهودي في إسرائيل، إذ إن ارتفاع وثبات الخصوبة لدى اليهود الشرقيين، وهم نصف عدد اليهود تقريباً (3,14 أطفال سنة 1996 و3,09 أطفال سنة 1980)، يعوض من الضعف النسبي لهذا المعدل لدى اليهود الغربيين (2,1 طفل سنة 1996)، ولدى اليهود القادمين من الاتحاد السوفياتي السابق (1,69 طفل). لكن سكان إسرائيل من اليهود، المتميزين بمستوى معيشة وثقافة شبيه بذلك الذي لدى الأوروبيين، يبرهنون، في مجملهم، عن رغبة قوية في الإنجاب. فالمعدل المرغوب فيه هنا هو ثلاثة أطفال لا طفلان كما في الغرب. ولعل وراء ذلك رغبة في الأمان تحسباً لخسارة مبكرة لأحد الأولاد بسبب حالة الصراع المسلح.⁽¹⁴⁾ فالنساء اليهوديات،

ومهما يكن مستوى تعلّمهن، مطلوب منهن التفوق في "حرب الأسرة" التي يخضنها ضد النساء الفلسطينيات.⁽¹⁵⁾ والنزعة النضالية الصهيونية، في وجهها الديني والعلماني، تشجع على الخصوبة السياسية.⁽¹⁶⁾

أمّا فلسطينيو إسرائيل فقد مروا بمرحلة تدنى فيها، بقوة، معدل الخصوبة لديهم، من أكثر من 9 أطفال في الستينات إلى 4,70 أطفال سنة 1987، لكن النسبة بقيت مستقرة⁽¹⁷⁾ منذ ذلك التاريخ، الأمر الذي يعزز موقع هذه الأقلية بسبب ازدياد طبيعي يوازي ثلاثة أضعاف ازدياد الأكثرية اليهودية. وفي الجليل، حيث تتمركز أغلبية الفلسطينيين في إسرائيل، ثمة قول شائع: "إنّ التفاوض في شأن الحدود يتم من خلال الأطفال..." فتحوّلت النساء الفلسطينيات، في إسرائيل، إلى راسمات للحدود الوطنية واجبهن الأول إنجاب الأولاد بناء على طلب المجموعة التي ينتمين إليها.⁽¹⁸⁾

أخيراً، لم تزل بعد من فلسطين فعلياً النتائج الديموغرافية - ارتفاع الخصوبة المرتفعة جداً في الأساس - للتوتر السياسي بين سنة 1987 وسنة 1993 حتى إنه، وبعكس ما نشهده في دول نامية أخرى، فإنّ الخصوبة المرغوب فيها مستقبلاً (5,56 أطفال) لا تكاد تكون أدنى (-10,8%) من الخصوبة الفعلية، 6,23 أطفال، خلال 1994 - 1995.⁽¹⁹⁾ وقد اعتمدنا في الاحتمال الثاني نسبة الانخفاض البسيطة هذه.

الدور الهامشي للهجرات

إنّ هذه التوقعات لا تترك سوى دور متواضع للهجرات الدولية، وهذا ما يبدو مفاجئاً في هذا الإطار، إذ بني كل شيء، أو هدم كل شيء عبر حركات الهجرة، أي ازدياد هجرة اليهود إلى إسرائيل منذ أكثر من قرن، وهجرة الفلسطينيين سنة 1948،⁽²⁰⁾ ومن ثم المغادرة المطردة للأراضي المحتلة بحثاً عن عمل. أمّا بالنسبة إلى فلسطين التي طُرحت بشأنها فرضيات متناقضة في الماضي،⁽²¹⁾ فقد تم اعتماد فرضية الهجرة الموازية لصفر. وترتكز هذه الفرضية على بنيتين: (1) إن فلسطين بلد يعاني تضخماً سكانياً (وخصوصاً بعد ما كشفه إحصاء سنة 1997)، وحالة فقر، وازدياداً طبيعياً لا يسمح له باستقبال مهاجرين جدد؛ (2) لم يعد للفلسطينيين أي ملجأ يقصدونه في الخارج.

تعديل التوازنات

على الرغم من أن شمعون بيرس يعرف جيداً الحقائق الجيوسياسية، فإنه يخطئ بشأن المستقبل السكاني للمنطقة. فهو يضخم، بصورة خيالية، احتمالات النمو الديموغرافي في الحيز الإسرائيلي - الفلسطيني من دون اتضاح غايته من ذلك. كما

أنه لا يمكن بلوغ العشرين مليون نسمة سنة 2018، كما يدعي.

فالحقيقة الجيوسياسية الأولى هي أن إسرائيل بيهودها وفلسطينييها ستبقى أهلة أكثر من فلسطين. أمّا الحقيقة الثانية، التي تعدل من وقع الأولى، فهي أن الفريقين، اليهودي والفلسطيني، لن يكونا متساويين في العدد، بصورة عامة، كما يعتقد بيرس.⁽²²⁾ فالفلسطينيون سيكونون أكثر عدداً بنسبة ملحوظة تصل إلى ما بين 56٪ و58٪ بحسب الاتجاهات وفوارق الخصوبة المتوقعة، وسيشكلون، من دون انتظار نهاية مرحلة الإسقاطات، الأكثرية بعد 12 سنة، ابتداء من سنة 2010.

أمّا تحقيق التوازن الديموغرافي بين اليهود والفلسطينيين، فيفترض أن يكون هناك، سنة 2018، ما بين 800 ألف يهودي و1,3 مليون يهودي أكثر من المتوقع نتيجة ازديادهم الطبيعي. فالهجرة الصافية لـ 800 ألف يهودي إلى إسرائيل خلال 20 عاماً، أي 40 ألف يهودي سنوياً هي أمر يمكن تصوره نظرياً. فبين سنة 1990 وسنة 1997 تقدم من مراكز الحدود الإسرائيلية 842 ألف شخص مزودين بتأشيرات هجرة.⁽²³⁾ لكن هناك فارقاً كبيراً بين وصول المهاجرين المبدئي والنتائج الفعلية.

إن المهاجرين كلهم ليسوا من اليهود. فمنذ الوصول الكثيف ليهود الاتحاد السوفياتي السابق، أي ابتداء من سنة 1990، توسع قانون العودة،⁽²⁴⁾ عملياً، كي يشمل الأزواج والزوجات من غير اليهود. وفي سنة 1997، انخفضت النسبة من 97٪ من المهاجرين اليهود المحتملين إلى 75٪. هنالك، إذًا، 716 ألف مهاجري يهودي محتمل تقدموا من الحدود حتى سنة 1996. لكن شمول الهجرة لغير اليهود يفسر الارتفاع الكبير لأتباع الطوائف المسيحية في إسرائيل. إذ بعد أن كان عددهم 107,000 نسمة، سنة 1990، ازداد المعدل 2000 نسمة سنوياً وتضاعف عشر مرات، منذ ذلك التاريخ، حتى بلغ 183 ألف نسمة في أواخر سنة 1996.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الإحصاءات الإسرائيلية الدورية تسمح بتأخير عام واحد لمعرفة الربح والخسارة نتيجة الهجرة بعد عام من الوصول. فهنالك 7,3٪ من المهاجرين اليهود عادوا إلى ديارهم أو راحوا يبحثون عن آفاق جديدة في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا... في سنة 1990. أمّا في سنة 1996، فبلغت نسبتهم 38,5٪. هنالك، إذًا، 574 ألفاً من المهاجرين اليهود استوطنوا، في المدى القريب، خلال سبعة أعوام، أي نسبة الثلثين من 842 ألف مهاجر موعود. وثمة مشكلة أخرى تتعلق بانتماء هؤلاء المهاجرين إلى الدين اليهودي على الرغم من تصريحهم بذلك. فما هو العدد الفعلي لليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي السابق الذين عبروا الحدود مزودين بشهادات غير مدقق فيها؟ طبعاً لا تأتي الأرقام إلى ذكر ذلك، فبعض المصادر يتحدث

عن العشر من غير اليهود والبعض الآخر عن النصف،⁽²⁵⁾ وربما تكون الحقيقة بين الرقمين. في كل حال، إنهم يشهرون في إسرائيل هوية روسية محددة. كذلك يصعب تقدير إنتاجية تيار الهجرة الحديث هذا في المدى البعيد، كما أننا لا نملك أية قاعدة تؤهلنا لإجراء التقديرات. لكن الإحصاءات العائدة لما قبل سنة 1990 تبين أن من مجموع 427 ألف مهاجر في الفترة 1972 - 1989، بلغت الحصيلة الفعلية للذين استوطنوا 206 آلاف نسمة فقط، أي أقل من النصف (48%).⁽²⁶⁾

أخيراً، برزت ظاهرة هجرة جديدة تخفف الاتكال على اليد العاملة الفلسطينية، وهي قدوم عمال من العالم الثالث (غانا، ونيجيريا، وسيراليون، وكولومبيا، والفلبين، والهند، وتركيا، ورومانيا...). وقد بلغ عدد الداخلين منهم، بصورة شرعية، أكثر من مئة ألف عامل، مع تقدير لعدد العمال غير الشرعيين قد يتجاوز الأربعين ألف عامل.⁽²⁷⁾ ويعيش هؤلاء حالة التجاذب نفسها التي عرفها العمال المهاجرون إلى أوروبا خلال "العقود الثلاثة المجيدة" وما بعدها. فبدلاً من العودة بعد انتهاء عقود عملهم، يستقدم هؤلاء العمال عائلاتهم ويولد لهم أولاد في إسرائيل، سرعان ما يتكلمون العبرية ويطالبون بحقوق متساوية مع باقي السكان بما في ذلك الحق في الجنسية. ومهما يكن حجم الظاهرة، فإننا نبتعد عن الهجرة اليهودية الحصرية التي يفترض فيها تعزيز الانسجام السكاني في إسرائيل.

يجب، إذاً، إعطاء الهجرة اليهودية حجمها الفعلي في التكوين السكاني المستقبلي في إسرائيل. وفي هذا الإطار تبدو التوقعات الرسمية الإسرائيلية (والتي حاولنا إكمالها) واقعية لجهة الهجرة الصافية المعتدلة، ثم انعكس الاتجاه ابتداء من سنة 1998.

عدم التلاؤم بين سكان الدولة العبرية وبنيتها

يبين الجدول رقم 4 الحصيلة الأساسية المتعلقة بالتوازنات السكانية المستقبلية في حيز إسرائيل - فلسطين.

حيز إسرائيل - فلسطين الواحد المستحيل

على صعيد حيز إسرائيل - فلسطين، وفي الشق السكاني تحديداً، يبدو إنه على الرغم من تعزيز الهجرة اليهودية، يميل السكان الفلسطينيون إلى تحقيق الغلبة بعد فترة عشرة أعوام تقريباً. من هنا نفهم إصرار شمعون بيرس على بناء دولتين منفصلتين، الأمر الذي سيسمح للدولة العبرية بالمحافظة، ولو جزئياً، على معظم المشروع الصهيوني الذي رسمه الصهيونيون الأوائل، أي دولة خاصة باليهود.

من هنا يصعب تصور اندماج افتراضي بين المجموعتين السكانييتين الحاصلتين على جنسية دولة واحدة.⁽²⁸⁾ ففي فرضية الدولة الديمقراطية الشاملة، قد يعني النمو السكاني الفلسطيني، الأكثر نشاطاً، الانتقال من أكثرية يهودية إلى أكثرية فلسطينية، على صعيد مجموع سكان البلد، سنة 2010، ثم على صعيد الجسم الانتخابي العام، سنة 2020. أما الاحتمال الآخر فهو وجود أقلية سكانية على رأس السلطة السياسية. فحتى لو غدا الفلسطينيون أكثرية في البلد، فإنهم سيُحرمون حقوقهم السياسية، وسيبقون في وضع الغرباء بالنسبة إلى الكيان القائم.⁽²⁹⁾ فمع أخذنا بعين الاعتبار الفوارق القائمة بين الظروف المتعددة لحالتهم السياسية الخاصة، فإن تجربة جنوب إفريقيا⁽³⁰⁾ وإيرلندا الشمالية⁽³¹⁾ وإقليم كوسوفو⁽³²⁾ تشير إلى أن الفصل بين الحقائق السكانية والسلطة السياسية في المجتمعات المركبة - قومياً أو إثنياً؛ لغوياً؛ دينياً - لا يدوم إلى ما لا نهاية، إذ إن في الإمكان تأجيل الاستحقاق. لكن إلى متى؟ وهذا ما يوصلنا إلى استنتاج فحواه أن إسرائيل ما قبل حدود سنة 1967 توفر إطاراً جغرافياً وسياسياً أكثر ملاءمة للمحافظة على الطابع اليهودي. فما هي آفاق هذا الخيار؟

اليهود والفلسطينيون

في إطار إسرائيل ما قبل سنة 1967

إن الفلسطينين سيصبحون داخل الحدود المعترف بها دولياً لدولة إسرائيل، سنة 2025، ما بين 1,7 مليون نسمة ومليون نسمة، أي ما بين 21% و24% من مجموع سكان إسرائيل. فالنمو السكاني للفئة الأولى أسرع ثلاث مرات من نمو الفئة الثانية، كما أنه يتركز جغرافياً في شمال البلد وجنوبه (الجدول رقم 5). فإلى الشمال من مستعمرة نتانيا (على مسافة 20 كلم من تل أبيب) وصولاً إلى الحدود اللبنانية، هناك 7 مناطق تغطي مساحة تبلغ 5100 كلم²، يعيش فيها معظم الفلسطينين القاطنين بإسرائيل، والذين تبلغ نسبتهم العامة، اليوم، 36% من مجموع عدد السكان، علماً بأن نسبة الفلسطينين العامة في منطقتي عكا والناصرية هي 63% و51% على التوالي. وسيلامس الفلسطينيون ما نسبته نصف عدد سكان البلد في حدود 2025 (نحو 46%). أما عند حلول الذكرى المئوية الأولى لتأسيس دولة إسرائيل (2048)، فستغدو نسبة السكان الفلسطينين العامة 50,5%. وستشهد منطقة النقب، مع سكان فلسطينيين بأعداد أقل لكن مع عمق جغرافي أكبر، نمواً مطرداً للفلسطينيين (39% سنة 2025)، علماً بأن هذه النسبة كانت تبلغ 24% سنة 1997.

أما في إطار الفرضية القائلة باعتماد الخيار الديمقراطي⁽³³⁾ والتمثيل النسبي في الانتخابات، فسيضعف النمو السكاني السريع – المتلازم مع تجمع جغرافي مواز – الوزن السياسي للفلسطينيين، بمجرد صعودهم في الجسم الانتخابي، بسبب الطابع "الإثني" المتصاعد للانتخاب في إسرائيل. فالواقع هو أن الأحزاب السياسية تميل، حالياً، إلى تمثيل جماعات محددة من السكان، عربية أو يهودية. ففي الكنيست، سنة 1996، انتُخب 11 نائباً فلسطينياً (8 نواب على اللوائح العربية و3 نواب على لوائح الأحزاب الصهيونية)*. بيد أن التقدم واضح قياساً بسنة 1992، إذ لم يُنتخب سوى 7 نواب فلسطينيين (4 نواب على لوائح أحزاب عربية و3 نواب على لوائح أحزاب صهيونية). وتبقى هذه النسبة أدنى من تلك التي تعد بها الحصيلة السكانية العامة (أي 16 نائباً)⁽³⁴⁾. ويُعتقد أنه في سنة 2025، سيقوم تآزر النمو السكاني الفلسطيني (5,19% من الجسم الانتخابي الإسرائيلي ككل). والازدياد المتوقع لميل الناخبين إلى التصويت لأحزاب عربية، بدور لمصلحة انتخاب افتراضي (23 نائباً فلسطينياً من مجموع 120 نائباً).

بيد أن النمو السكاني الفلسطيني في إسرائيل سيف ذو حدين. إذ إن في إمكانه أن يؤدي إلى تصلب موقف دعاة "الترانسفير"، أي ترحيل الفلسطينيين إلى خارج الحدود؛ وهذا تهديد لم يفارق الفلسطينيين الذين بقوا في بيوتهم بعد سنة 1948⁽³⁵⁾. غير أن كثافة عدد الفلسطينيين في إسرائيل (نحو مليون نسمة) تجعل من تنفيذ ترحيلهم عملية شبه مستحيلة، لاتساع نطاقها. كما يتضح من تاريخ الأعوام الخمسين الأولى لإسرائيل أن هذا السيف المسلط لم يترجم على الأرض، على الرغم من التوترات الشديدة التي ولدتها الحروب الثلاث في المنطقة، وإذا بقيت المعطيات الإقليمية والدولية، خلال الأعوام المقبلة.

* أصبح عددهم 12 نائباً فلسطينياً في شباط/فبراير 1999.

الجدول رقم ٤
توقعات نمو السكان الإسرائيليين والفلسطينيين
(١٩٩٨ - ٢٠٢٥) بالآلاف

٢٠٢٥	٢٠٢٠	٢٠١٥	٢٠١٠	٢٠٠٥	٢٠٠٠	١٩٩٨	
السيناريو الأول: هبوط معدلات الخصوبة							
٧٨٦٩	٧٥٠٦	٧١٠٨	٦٦٩٨	٦٢٨٤	٥٨٨٤	٥٧٠٥	إسرائيل
٦٢١٠	٥٩٧٦	٥٧٠٩	٥٤٣١	٥١٥٠	٤٨٨٧	٤٧٦٠	يهود
١٦٥٩	١٥٣٠	١٣٩٩	١٢٦٧	١١٣٤	٩٩٧	٩٤٥	فلسطينيون*
٢١,١	٢٠,٤	١٩,٧	١٨,٩	١٨,٠	١٦,٩	١٦,٦	% الفلسطينيين*
٦٠٧٢	٥٤٥٠	٤٨٣٣	٤٢٣٩	٣٦٧٨	٣١٥٣	٢٩٢٠	فلسطين
% الفلسطينيين في إسرائيل/ فلسطين							
٥٥,٥	٥٣,٩	٥٢,٢	٥٠,٣	٤٨,٣	٤٥,٩	٤٤,٨	
١٣,٩٤١	١٢,٩٥٦	١١,٩٤١	١٠,٩٣٧	٩٩٦٢	٩٠٣٧	٨٦٢٥	المجموع
السيناريو الثاني: معدلات خصوبة ثابتة في إسرائيل، هبوط بطيء في فلسطين							
٨٤٨٨	٧٩١١	٧٣٥٦	٦٨٣٤	٦٣٤٢	٥٨٩٩	٥٧٠٥	إسرائيل
٦٤٨٦	٦١٦٠	٥٨٢٤	٥٤٩٥	٥١٧٧	٤٨٩٤	٤٧٦٠	يهود
٢٠٠٢	١٧٥١	١٥٣٢	١٣٣٩	١١٦٥	١٠٠٥	٩٤٥	فلسطينيون*
٢٣,٦	٢٢,١	٢٠,٨	١٩,٦	١٨,٤	١٧,٠	١٦,٦	% الفلسطينيين*
٦٨٩٢	٥٩٧٨	٥١٤٧	٤٤٠٣	٣٧٤٧	٣١٦٩	٢٩٢٠	فلسطين
١٥,٣٨٠	١٣,٨٨٩	١٢,٥٠٣	١١,٢٣٧	١٠,٠٨٩	٩٠٦٨	٨٦٢٥	المجموع
% الفلسطينيين في إسرائيل/ فلسطين							
٥٧,٨	٥٥,٦	٥٣,٤	٥١,١	٤٨,٧	٤٦,٠	٤٤,٨	

* الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية.

المصدر: عمليات حسابية طبقاً لمعطيات الجدول رقم ٣. وبالنسبة إلى فلسطين أخذت المعطيات من نتائج إحصاء سنة ١٩٩٧.

الجدول رقم ٥
الأعداد والنسب الحالية والمستقبلية للسكان الفلسطينيين
داخل إسرائيل (حدود ما قبل سنة ١٩٦٧)

النسبة العامة للسكان			عدد السكان (بتاريخ ١٩٩٧/١/١)	
٢٠٤٨	٢٠٢٥	١٩٩٧		
٧٦,٤	٧٣,٠	٦٣,٣	٢٦٧,٨٠٠	عكا
٦٥,٩	٦١,٩	٥١,٣	١٧٩,٣٠٠	الناصرة
٦٢,٠	٥٧,٧	٤٤,٣	١١٤,٧٠٠	حديرا
٣٣,٣	٢٩,٠	٢٢,٠	٦٢,٥٠٠	الشارون
١٨,٣	١٥,٨	١١,٧	٥٨,٤٠٠	حيفا
٤٠,٤	٣٦,٣	٢٧,٣	٢٣,٦٠٠	طبرية
١٩,٥	١٦,٩	١٠,٦	٩١٠٠	صفد
٥٠,٥	٤٦,١	٣٦,٠	٧١٥,٤٠٠	المناطق الشمالية:
٣٠,٣	٢٣,٢	١٣,٥	٢٣,١٠٠	الرملة
٤٨,٨	٣٨,٦	٢٤,٠	١٠٧,٣٠٠	بئر السبع
				غيرها (القدس الغربية
				وتل أبيب وبيتح تكفا
٤,٥	٣,٢	١,٧	٧٢,٠٠٠	ورحوفوت وعسقلان)
٢٥,٥	٢٢,٢	١٦,١	٩١٧,٨٠٠	مجموع إسرائيل

المصدر: Central Bureau of Statistics, *Statistical Abstract 1997*.

بالنسبة إلى سنتي ٢٠٢٥ و ٢٠٤٨ أنظر:

Youssef Courbage, "Les Arabes israéliens et la paix au Proche-Orient," in Louis Blin et Philippe Fargues, *L'Economie de la paix au Proche-Orient* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1995).

والمعطيات فيما يتعلق بالمستقبل مأخوذة من:

Courbage, *Scenari Demografici...*, op.cit.

يهود أوروبا (الأشكنازيم) ويهود إفريقيا وآسيا (السفاراديم)

هناك انقسام داخل العنصر السكاني اليهودي نفسه. فيهود أوروبا (الأشكنازيم) هم الذين قاموا بتأسيس دولة إسرائيل التي سبق تأسيسها وصول موجات هجرة أوروبية خالصة تقريباً، بين نهاية الحرب العالمية الأولى وسنة 1948، عدا عدد قليل من المهاجرين اليهود القادمين من إفريقيا أو آسيا (المزراحيم)، منهم اليهود اليمينيون الذين قدموا منذ العهد العثماني. لاحقاً، وبفعل هجرة اليهود من البلاد العربية أو من البلاد الإسلامية (السفاراديم)، وبفعل ميلهم إلى الإنجاب الكثيف أصبح هؤلاء الأكثرية السكانية، إلا أنهم عادوا ففقدوا هذه الأكثرية، نتيجة عامل الهجرة الكثيفة لليهود المقيمين بالاتحاد السوفياتي السابق.⁽³⁶⁾

ومع التشرذم المتوقع لموجات الهجرة إلى إسرائيل، ستقوم الفوارق في الخصوبة بين الجماعات اليهودية بتحديد مستقبل سلم توزيع السكان اليهود في إسرائيل. ومن دون أن نزع أن الأمر أوتوماتيكي، نشير إلى أن التطورات السياسية داخل المجموعة السكانية اليهودية في إسرائيل لم تخل من علاقة بنموها السكاني. فالأحزاب السياسية المبنية على أساس إثني محض، والعاكسة لعمليات إعادة التوزيع التي أحدثتها الهجرة أو اختلاف السلوك الإنجابي، ظهرت أخيراً على الساحة، وهي تنافس بقوة الأحزاب الصهيونية التقليدية. فبعد الحركة العابرة التي شكلتها حركة الفهود السود، بدأ حزب شاس السفارادي صعوده (فاحتل 4 مقاعد سنة 1984 و6 مقاعد سنة 1988 وسنة 1992، ثم 10 مقاعد سنة 1996).

يقع صعود حزب الليكود وهبوط حزب العمل اعتباراً من سنة 1977 حتى اليوم (إذ بقي حزب الليكود على رأس السلطة التقليدية، وحده أو في إطار تحالف، طوال 15 عاماً من مجموع 21 عاماً) عند التقاء ظاهرتين: الأولى سياسية والثانية سكانية. ففي الانتخابات المتعاقبة للكنيست مال حزب الليكود (تحت تسميات متعددة) إلى استقطاب أصوات المزراحيم، في وقت سعى حزب العمل فيه لاستقطاب أصوات الأشكناز.⁽³⁷⁾ وقد ساعد في ظهور هذا الحزب واستقراره في السلطة ازدياد عدد المزراحيم من 43% في الستينات إلى 52% سنة 1988 (في مجموع عدد السكان ثم في مجموع الجسم الانتخابي). غير أن هيمنة النخب التابعة للأشكنازيم في المجال السياسي - التي تعكس تفوق هذه الفئة في المجالات الثقافية والاقتصادية والمهنية -⁽³⁸⁾ لم توفر حزب الليكود نفسه، الذي ينتمي ثلث أعضائه (34%)، في القيادة المركزية فقط، إلى أصول سفارادية (1986).

وعلى الرغم من أن التمايز في النمو السكاني بين اليهود الإسرائيليين لا يشكل السبب الوحيد للتغيرات السياسية، فإنه قد يكون عاملاً في إثارتها لاحقاً. وقد كان لعملية استيراد اليهود الضخمة من الاتحاد السوفياتي السابق نتائج ضارة، تمثلت في خفض خصوبة الأشكنازيم الذين كانوا يدافعون عن مواقعهم، نظراً إلى جذور هذه الفئة الأوروبية. فالخصيلة التراكمية خلال الفترة 1991 – 1996 هي أنه في مقابل ارتفاع المساهمة السكانية للهجرة اليهودية من أوروبا، عادت تمايزات الخصوبة بين الفئتين الأساسيتين في إسرائيل اليوم لتتبع من جديد. كانت خصوبة الأشكنازيم تتمحور حول 2,39 طفل، وخصوبة المزراخيم تتمحور حول 2,89 طفل، أي مع نصف طفل إضافي وفارق مئوي يساوي في الخصوبة 21%. وقد أجرينا استطلاعاً لآفاق هذا التطور المتميز انطلاقاً من هذا الفارق.⁽³⁹⁾

إن الزيادة النسبية في النمو السكاني لن تكفي مستقبلاً لترجيح كفة اليهود المزراخيم من جديد واستعادتهم الغلبة التي كانوا يتميزون بها خلال الفترة 1972 – 1988، أي ما بين 50% و51,6%.⁽⁴⁰⁾ ولن يستعيد المزراخيم الأثرية قبل سنة 2025، أي 49,6%. غير أن ازدياد حجمهم السكاني – وبالتالي حجمهم الانتخابي –⁽⁴¹⁾ الذي سيرتسم خلال الربع الأول من القرن المقبل، قد يؤكد الاتجاهات التي برزت خلال الانتخابات الأخيرة في الكنيست سنة 1996؛ انتخاب رئيس للحكومة من الليكود، مع أغلبية ظاهرة للناخبين اليهود (55%) وتوزعهم المتشردم على أحزاب إثنية.⁽⁴²⁾

في هذا المخاض السكاني، من المتوقع أن نشهد الصعود السكاني والسياسي للفلسطينيين (21%) ولليهود الشرقيين (39%) ولليهود الروس (10% – 15%)⁽⁴³⁾ الذين سيشكلون ما بين 70% و75% من مجموع عدد السكان. بينما سيغدو مؤسسو دولة إسرائيل، من روس وبولونيين ورومانيين وألمان وبلغاريين وتشيكيين ومجريين ويونانيين، بحجم سكاني لا يتجاوز 25% – 30%. وهنا تبرز المفارقة: فبعد تمتع حزب العمل شبه الكلي بالدولة، إلى درجة تماهيه مع هذه الدولة والتحول إلى حزب دولة، سيهبط إلى مستوى حزب لا يمثل سوى أقلية محاصرة.

الخاتمة

بعد مضي خمسين عاماً على الحرب الإسرائيلية - العربية الأولى، يبلغ عدد الفلسطينيين القاطنين ببلدهم 4 ملايين نسمة تقريباً (3,865,000 نسمة بتاريخ 15 أيار/مايو 1998). وفي سنة 1948، لم يكن يبلغ عددهم سوى 1,363,000 نسمة. وأجبر معظمهم، في حينه، على مغادرة منزله بقوة السلاح، وعلى سلوك دروب التهجير.⁽⁴⁴⁾ بيد أنه، على الرغم من النزيفين اللذين حدثا سنتي 1948 و1967، فإن الضربة قد استوعبت، نسبياً، على الصعيد السكاني. فقد تضاعف عددهم أربع مرات خلال خمسين عاماً، أي بمعدل نمو مطرد مقداره 2,1٪ سنوياً. وبذلك يصبح الفلسطينيون على مسافة قريبة جداً من خط النمو السكاني المعروف في الدول العربية الأخرى، المرتفع أساساً.⁽⁴⁵⁾ وهذه النتيجة غير متوقعة، فعلاوة على عمليات التهجير التي كانت تلي الحروب عرفت فلسطين (لا السكان الفلسطينيون في إسرائيل) هجرة طوعية كثيفة، نتيجة الأوضاع الاقتصادية القاسية جداً، إلى درجة أنها حرمت الأجيال المقيمة 40٪ من عناصرها.⁽⁴⁶⁾

وفي الواقع، تترافق الحروب والنزعة القومية مع نمو سكاني قوي لكنه شديد الاختلاف بنيوياً. ففي رأس الهرم هناك فلسطينيو قطاع غزة، يتبعهم فلسطينيو الضفة الغربية، ثم فلسطينيو إسرائيل. أما بالنسبة إلى اليهود فإن السفاراديم يتجاوزون الأشكنازيم عدداً، بحيث إن التوازنات السكانية الحالية ستخضع، قريباً، لإعادة نظر بفعل الازدياد السكاني الفلسطيني داخل حدود إسرائيل المعترف بها وخارجها، وداخل كتلة السفاراديم التي تتقدم على الأشكنازيم.

غير أن المنافسة السكانية القائمة في مجمل فلسطين/إسرائيل لم تعد تهم اليهود والفلسطينيين وحدهم، أو اليهود السفاراديم والأشكنازيم، بل إنها تداخلت فيما بين هاتين المجموعتين. فالانقسام العلماني/الديني، بالأرقام السكانية، قد غدا كبيراً جداً اليوم. والنواب في الكنيست يمثلون أنصارهم، كما يمثلون خياراتهم الأسرية المفضلة. وهكذا نلاحظ أن نواب الأحزاب السياسية الدينية أو القومية المتطرفة (شاس؛ مفدال؛ يهودوت هتوراه؛ موليدت) يملكون، وسطياً، 6,2 أولاد. بينما لا يملك كل النواب الآخرين، مجموعين، بمن فيهم الذين في السلطة (الليكود؛ معراخ؛ ميرتس؛ الطريق الثالث؛ يسرائيل بعلياه)، سوى ثلاثة أولاد. وهذا الانقسام قوي إلى حد أنه يميل، اليوم، إلى حجب الانقسام التقليدي القائم بين الفلسطينيين واليهود.

ونلاحظ أن الخصوبة الفلسطينية في إسرائيل، لدى الشعب الفلسطيني كما لدى نوابه في الكنيست، معتدلة جداً، إذ إنها تتمحور حول 4 أولاد، قياساً بالمتدينين

اليهود.⁽⁴⁷⁾ وبفضل خصوبتهم المضاعفة، سيشهد هؤلاء الناخبون ازدياداً هائلاً خلال 25 عاماً (360٪)، في وقت سيبقى فيه الناخبون اليهود الآخرون، العلمانيون، في حدود ازدياد لا يتجاوز 40٪.

ومن المرجح أن تشهد عندها البنى السياسية التي قام عليها تفوق حزب العمل أولاً، ثم حزب الليكود لاحقاً، تصدعاً مصدره هذه الموجة الأصولية اليهودية، المدعومة بنمو سكاني عظيم، من شأنه أن يقلب المعطيات التقليدية السابقة. ■

الحواشي

- (1) "الوضع السكاني [...] أي واقع أن يهود فلسطين شكلوا 10٪ فقط من مجموع عدد السكان." أنظر:
Ilan Pappé, *The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1947-1951* (London: I.B. Tauris, 1994).
- (2) قال شلومو ليفي، نائب حزب مباي (عمالي)، في الكنيست سنة 1949: "إني قلق من عدد العرب في البلد. قد يأتي يوم نتحول فيه إلى أقلية في إسرائيل. هنالك اليوم 170 ألف عربي، ونسبة الولادات، المرتفعة لديهم أساساً، في ازدياد مستمر [...] وقد نصل إلى يوم تتحدد فيه طبيعة البلد انطلاقاً من مصالح العرب لا مصالح اليهود." ورد الاقتباس في:
Tom Ségué, *Les Premiers Israéliens* (Paris: Calmann-Lévy, 1998), p. 69.
- (3) حاول الإحصائيون الإسرائيليون إقناع رئيس الحكومة، مناحم بيغن، سنة 1978 بالتخلي عن المناطق التي احتلتها إسرائيل في حرب 1967: "إن الوقائع الديموغرافية في إسرائيل وفي هذه المناطق ستمنع إلى الأبد ضم قطاع غزة والضفة الغربية إلى إسرائيل." أنظر:
Nick Eberstadt and Eric Breindel, *Realities Behind Camp David: Demographic Aspects of Politics of Peace in the Middle East* (Harvard: Center for Population Studies, Harvard University, 1978).
- (4) A.S. Dahlan, "Population, War and Politics: A Case Study of the Gaza Strip," in J.L. Clarke (ed.), *Population and Disaster* (Blackwell, 1989).
- (5) هنالك تسميات متعددة تحمل معاني سياسية، وتستعمل للإشارة إلى الفلسطينيين الذين لم يرافقوا الـ 750 ألف نازح في إثر الحرب الإسرائيلية - العربية الأولى وعددهم 156 ألف نسمة سنة 1948. ومن هذه التسميات: العرب الإسرائيليون؛ عرب إسرائيل؛ العرب في إسرائيل؛ الفلسطينيون الإسرائيليون؛ فلسطينيو إسرائيل؛ الفلسطينيون في إسرائيل؛ فلسطينيو الـ 48؛ الفلسطينيون المواطنون في إسرائيل. أنظر:
Zeev Rosenhek, "New Developments in the Sociology of Palestinian Citizens of Israel: An Analytical Review," *Ethnic and Racial Studies*, Vol. 21, No. 3, May 1998.
- ويشير روزنهيك إلى أنه في علم الاجتماع الإسرائيلي التقليدي ولدى الرسميين في الدولة والجمهور اليهودي عامة تستعمل عبارة "العرب الإسرائيليون" التي تتضمن تعريفاً ثقافياً بدلاً من تعريف الأقلية القومية.
- (6) مع نسبة ازدياد سنوي تبلغ 40 في الألف بين تاريخ الإحصاء في كانون الأول/ديسمبر 1997 و15 أيار/مايو 1998.
- (7) ملتصقون لا مختلطون. الاستثناءات الوحيدة هي المدن المختلطة: حيفا وعكا ويافا واللد والرملة. أنظر:
G. Falah, "Ethnic Perceptual Differences of Housing and Neighbourhood Quality in

- Mixed Arab-Jewish Cities in Israel," *Environment and Planning*, Vol. 29, No. 9, September 1997.
- (8) Shimon Pérès, "Ecrire l'histoire à l'encre verte," *Le Monde diplomatique*, mai 1998.
- (9) *Ibid.*
- (10) إلا إذا كانت المشكلة في عملية نشر المعلومات وإعطائها الصفة الرسمية بدلاً من أن تكون في وجود هذه المعطيات نفسها.
- (11) ينشر قسم السكان في الأمم المتحدة توقعات بشأن قطاع غزة والأردن بكامله (الضفتين) والقدس الشرقية (والجولان الذي يحسب سكانه ضمن إسرائيل). أنظر:
United Nations, *World Population Prospects as Assessed in 1996* (New York, 1997).
- (12) على الرغم من المظاهر، فإن نسبة الوفيات غير معروفة إلا فيما يختص باليهود في إسرائيل. أما عند باقي الفئات فالوفيات قبل عمر خمسة أعوام معروفة بعكس باقي الأعمار. هنا لائحة بمعدلات الحياة التي استخدمت في إجراء التوقعات.

٢٠٢٥ - ٢٠٢٠		٢٠٠٠ - ١٩٩٥		
نساء	رجال	نساء	رجال	
٨٢,٠	٧٨,٠	٨٠,٠	٧٦,٠	إسرائيل (مجموع السكان)
٨٠,٠	٧٨,٠	٧٧,٥	٧٥,٠	إسرائيل (العرب)
٧٧,٠	٧٤,٠	٧١,٠	٦٨,٠	فلسطين

- (13) في الفترة 1975 - 1995، تضاعف الناتج الداخلي الخام في إسرائيل سبع مرات. وبلغ الدخل القومي للفرد 16,690 دولاراً أميركياً في أواخر سنة 1996، وهذا يضع إسرائيل في المرتبة 21 بين الدول. وفي نيسان/أبريل 1997، وتأكيداً لحصول نمو اقتصادي استثنائي أضاف صندوق النقد الدولي أسماء كل من إسرائيل وسنغافورة وكوريا الجنوبية وهونغ كونغ وتايوان إلى لائحة الدول المتقدمة. أنظر:
Gershon Shafir and Yoav Peled, "Citizenship and Stratification in an Ethnic Democracy," *Ethnic and Racial Studies*, Vol. 21, No. 3, May 1998.
- (14) Calvin Goldscheider, *Israel's Changing Society: Population, Ethnicity and Development* (Boulder, Colo.: Westview, 1996).
- (15) أنظر: Shafir and Peled, *op. cit.*
- بالنسبة إلى هذين الباحثين كانت النظرة إلى النساء اليهوديات من أصل شرقي (المزراحيين) تحصرهن في دور الولادات اللواتي عليهن واجب تأمين الأثرية اليهودية العديدة على حساب مواطنيتهن الناقصة.
وانظر أيضاً:
- Calvin Goldscheider and Dov Friedlander, "Reproductive Norms in Israel," *Population Studies and Training Center, PSTC Reprint Series*, February 1987.
- يقترح المؤلفان سياسة سكانية متنوعة: خفض الخصوبة حيث هي مرتفعة، أي عند النساء المسلمات الريفيات، من دون إضعافها لدى اليهوديات من أصل أوروبي.
- (16) Jon Anson and Avinoam Meir, "Religiosity, Nationalism and Fertility in Israel," *European Journal of Population*, No. 12, 1996.
- (17) هناك ارتفاع لنسب الولادات غير الصافية: 31,8 في الألف سنة 1986 و34,4 في الألف بعد عشر سنوات، أي سنة 1996. بنيت التقديرات استناداً إلى:
Central Bureau of Statistics, *Monthly Bulletin of Statistics* (Jerusalem, January 1998).

- Rhoda Kanaaneh, "Negotiating Babies and Boundaries: The Dynamics of Population, Nationalism and Gender Among Palestinians in the Galilee," IUSSP, Arab Regional Population Conference, Cairo, 1996.
- (19) الخصوبة المرغوب فيها مستقبلاً (الضفة الغربية وقطاع غزة من دون القدس الشرقية) بحسب مؤشر
Wanted Total Fertility Rate of John Boongaarts, "The Measurement of Wanted Fertility Rate," *Population and Development Review*, Vol. 16, No. 3, September 1990.
وذلك انطلاقاً من معطيات المكتب المركزي الفلسطيني للإحصاء في نشرته الصادرة في رام الله سنة 1996.
- (20) بشأن الأرقام انظر:
Elias Sanbar, *Palestine 1948: L'expulsion*, Les livres de la Revue d'études palestiniennes (Washington D.C.: Institut des études palestiniennes, 1984).
- (21) توقع قسم السكان في الأمم المتحدة في إسقاطاته لسنة 1994، وبالعكس سنة 1996 حيث اعتمد الفرضية صفر، أن تتكثف الهجرة من قطاع غزة ابتداء من سنة 1995 حتى سنة 2025 (لا توقعات بالنسبة إلى الضفة التي لا تزال محسوبة مع الأردن). في المرحلة نفسها، وفي جو التفاؤل بالاتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي (1993) توقع المسؤولون الفلسطينيون عودة كثيفة من الشتات الفلسطيني إلى الداخل.
- (22) "بعد عشرين عاماً سيتضاعف عدد سكان هذه المنطقة (!) وسيصل إلى 20 مليون نسمة، سيكون نصفهم من العرب، على الأقل، والنصف الآخر من اليهود." أنظر:
Pérès, *op. cit.*
- Central Bureau of Statistics, *Monthly...*, *op. cit.* (23)
- (24) يسمح قانون العودة (1950) لكل يهودي، بالمعنى الدقيق للكلمة، بالإقامة بإسرائيل. وقد تم تعديل هذا القانون سنة 1970 من أجل استيعاب موجة الهجرة من الاتحاد السوفياتي التي تلت الحرب. فبات يكفي وجود جد يهودي للسماح للشخص وزوجه بالإقامة بإسرائيل. وتقدر نسبة المهاجرين الذين لا يعتبرون يهوداً بحسب التعريف المتشدد بـ 20% في بداية التسعينات، و60% في منتصف العقد. أنظر:
Shafir and Peled, *op. cit.*
- (25) 300 ألف يهودي مزيّف بحسب مقال:
Alain Dieckhoff, "Israël: dualité politique et pluralisme communautaire," *Maghreb-Machrek*, no. 159, janvier-mars 1998.
- (26) إن الولايات المتحدة هي الوجهة المفضلة عند المهاجرين الإسرائيليين (50% إلى 60% من مجموع المهاجرين من إسرائيل). أنظر:
Yinon Cohen and Andrea Tyree, "Palestinian and Jewish Israeli-born Immigrants in the United States," *International Migration Review*, Vol. 28, Summer 1994.
- (27) William Berthomière, "De l'Aliya à l'immigration, ou la lecture d'un continuum migratoire israélien," *Revue européenne de migrations internationales*, vol. 12, no. 3, 1996.
- (28) أنظر مثلاً: رأي النائب الفلسطيني في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة في مقال في صحيفة "لوموند" بعنوان:
"La discrimination contre les Arabes est inhérente au sionisme," *Le Monde*, 25 avril, 1998.
- وجاء فيه: "لن نصبح أبداً أمة واحدة لأن لدينا ذاكرتين وثقافتين ووعيين تاريخيين مختلفين."
- (29) يرفض الجميع الانتماء إلى جنسية مشتركة، إذ إن القليلين من الإسرائيليين يوافقون على منح الفلسطينيين الجنسية الإسرائيلية، والقليلين من فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة على استعداد لحمل الجنسية الإسرائيلية، حتى لو طال الاحتلال.

- (30) سنة 1990 انتهى نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا، وتولى نلسون مانديلا منصب رئيس الجمهورية سنة 1994، بعد قرن من سيطرة الأقلية البيضاء على الأكتريية السوداء.
- (31) سلطة داعية إلى وحدة البروتستانت وإلى تقسيم إيرلندا سنة 1922، مبنية على استفزاز الأقلية الكاثوليكية (33% من مجموع عدد السكان). أمّا اليوم فإن الكاثوليك يقتربون في عددهم من حجم أغلبية السكان في البلد (43%) وسيلغونها بعد ثلاثين عاماً حتماً. واتفاقات عيد الفصح، سنة 1998، تحاول أن تستبق قليلاً انقلاب معطيات الأغلبية في إيرلندا.
- (32) في مقاطعة كوسوفو، يبرر الألبان مطالبهم بالاستقلال كونهم أصبحوا يشكلون 90% من مجموع السكان. وهذا مطلب لم يكن في قدرتهم رفعه قبل نصف قرن حين كان عددهم يتعادل مع عدد الصرب.
Bishara, *op. cit.*: (33) أنظر:
- وانظر أيضاً: Nadim Rouhana, *Palestinian Citizens in an Ethnic Jewish State Identities in Conflict* (New Haven: Yale University Press, 1997).
- وبحسب قول ألبير بن - رفائيل فإن "روحانا يعترف بأن فلسطيني إسرائيل يتمتعون بحرية الكلمة وبحرية التجمع، أو بالحصول على المعلومات، مثل أي شخص آخر يعيش في نظام ديمقراطي." أنظر:
- Eliezer Ben-Rafael, "Arab Citizenship in Israel," *Ethnic and Racial Studies*, Vol. 21, No. 3, May 1998.
- غير أن كاتباً فلسطينياً آخر لا يشاطره وجهة النظر هذه، وهو أسعد غانم، الذي كتب في العدد نفسه من المجلة مقالاً بعنوان:
- "State and Minority in Israel: The Case of Ethnic State and the Predicament of its Minority."
- (34) لا يشكل الشباب الفلسطيني بسبب فتوة أعمارهم سوى 13% من الجسم الانتخابي في إسرائيل، بينما هم يمثلون 16% من مجموع عدد سكان البلد.
- (35) في أواخر سنة 1988، كان رئيس الدولة نفسه يتهدد الفلسطينيين العرب، متكلماً عن "مأساة جديدة كتلك التي حدثت سنة 1948." أنظر:
- Michel Warchawski, "Les Palestiniens d'Israël," *Témoignage Chrétien* (hors série), 2^e trim. 1990.
- حتى إن اتفاقات أوصلو قد أثارت الاضطراب عند بعض فلسطينيين إسرائيل الذين خافوا أن يتم إخراجهم من إسرائيل كتمن لقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- (36) هناك انزعاج واضح في الأدبيات العلمية بشأن تسمية الجماعات اليهودية في إسرائيل. فالسفارديم، بالمعنى الضيق، هم أحفاد اليهود الذين غادروا إسبانيا والبرتغال أيام الفتح الإسباني لأميركا. أمّا بالمعنى العام، فإن هذا التعبير يشمل كل اليهود الذين ليسوا من الأشكنازيم. أمّا تعبير اليهود المزراحم فيطلق على اليهود القادمين من بلاد إسلامية. أنظر:
- Yoav Peled, "Towards a Redefinition of Jewish Nationalism in Israel: The Enigma of Shas," *Ethnic and Racial Studies*, Vol. 21, No. 4, July 1998.
- (37) U.O. Schmetz, S. Dellapergola, U. Avner, *Ethnic Differences among Israeli Jews: A New Look* (Jerusalem: The Institute of Contemporary Jewry, The Hebrew University, American Jewish Committee, 1991).
- تبين الدراسة الإحصائية المعمقة، استناداً إلى نتائج انتخابات الكنيست للسنوات 1955 و1965 و1977 و1988، أن انتقال كتلة الناخبين السفارديم كان في اتجاه حزب الليكود (57%)، ثم في اتجاه حزب العمل (65%) في انتخابات سنة 1988.
- (38) وهكذا، فقد تابع 7% من الراشدين ذوي المنشأ الإفريقي - الآسيوي تحصيلهم الجامعي، في مقابل 22% في صفوف الراشدين ذوي الأصول الأوروبية. وفي 10% من الأسر الأكثر ثراء، لا نجد سوى 18% من اليهود السفارديم. وقد بينت دراسة حديثة أخرى أن فارق المداخل تفاقم بدلاً من أن يتقلص خلال الفترة 1975 - 1992. أنظر:

Yinon Cohen and Yitchak Haberfield, "Second-Generation Jewish Immigrants in Israel: Have the Ethnic Gaps in Schooling and Earnings Declined?" *Ethnic and Racial Studies*, Vol. 21, No. 3, May 1998.

(39) تعقيد الوضع قد يدخل اليأس في قلوب علماء الديموغرافيا في هذا المجال.
(40) لم نأخذ بعين الاعتبار، في هذه الفرضيات، استمرار الهجرة الوافدة من الاتحاد السوفياتي السابق. إذ إنه مع الوقت، سيتضاءل رأس مال الخصوبة المضاعفة عند اليهود السفارديم، بفعل إعادة تركيب بنيتهم السكانية التي ستحل فيها، لاحقاً، إناث ولدن في إسرائيل بدلاً من الإناث السابقات المولودات في الخارج والأكثر خصوبة.

(41) قمنا بتكوين هذا الجدول انطلاقاً من التوزيع العمري للسكان بحسب قارة المنشأ: آسيا/إفريقيا؛ أوروبا/أميركا.

(42) ينحو بعض الأحزاب التي لا صفة إثنية علنية لها، أكثر فأكثر، إلى تمثيل قطاع خاص من السكان. هذا ما يتبين بالنسبة إلى حزب مبام، وبالتدرج أكثر أيضاً بالنسبة إلى حزب مباي.

(43) نظرياً، ينتمي اليهود الروس إلى كتلة الأشكنازيم، إلا إن خصوصياتهم الدينية والانتخابية تضعهم جانباً وعلى وحدة في هذا التوزيع الإثني. أنظر:

Majid Al-Hajj, "Attitudes et manières de se situer des immigrants soviétiques: l'émergence d'un nouveau groupe ethnique en Israël," *Revue européenne des migrations internationales*, vol. 12, no. 3, 1996.

(44) طال التهجير 725,000 من الفلسطينيين سنة 1948: انتقل منهم 280,000 نسمة إلى الضفة الغربية و190,000 نسمة إلى قطاع غزة، علماً بأن 255,000 آخرين كانوا غادروا البلد. وفي سنة 1967، حدثت هجرة بالحجم الضخم نفسه، إذ هاجر 250,000 فلسطيني إلى خارج بلدهم. أنظر:

Philippe Fargues, "Démographie de guerre, démographie de paix," in Ghassan Salamé, *Proche-Orient, Les exigences de la paix* (Bruxelles: Complexe, 1994).

(45) باستثناء الدول المنتجة للنفط والأردن، نورد معدلات النمو السنوي طوال خمسين عاماً في الدول التالية: سورية (3,1٪)؛ لبنان (1,7٪)؛ اليمن (2,9٪)؛ العراق (3,0٪)؛ مصر (2,3٪)؛ تونس (2,1٪)؛ الجزائر (2,6٪)؛ المغرب (2,4٪). أنظر:

United Nations, *op. cit.*

(46) للفترة بين سنة 1967 وسنة 1990، أنظر:

Youssef Courbage, "La population de la Palestine," *Population*, no. 1, 1994.

(47) في كتاب يصدر قريباً:

Youssef Courbage, "Fécondité et politique en Israël: les députés israéliens de la Knesset de 1996".

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>